سلسلة الأسرار الإسلامية

سِرُّ السَّيْلِ وَاللَّيْل

محمّد علي قطب

الدّار النّموذجيّة لِلطّباعة والنشر
صيدا - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سلسلة الأسرار الإسلامية

سر السيل والليل

إعداد
محمد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري
فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية
بيروت - ص ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص ب ٢٢١
تلكس: SCS ٢٩١٩٨LE ـ ٢٠٤٣٧LE

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الْأَعِزّاء:

السلام عليكم ورَحَمةُ الله وبركاته... وبعد.

جرت أحداث هذه القصة بفصولها المثيرة بعد غزوة «أُحُد» وفي مكان قريب من «مكة» المكرمة..

إذ اختفت بعدها جثة شهيدَيْن بطلَيْن عن أعين البشر وأيديهم!!!

فكيف كان ذلك؟!! كَيْف حَدَثَ؟ وكيْفَ تَمَّ؟

تعال نتابع معاً تلك الأحداث لنكشف الستار عما وراء اختفاء جثة الشهيدين من أسرار!!

الأُمُّ الثكْلى

. . . وراحت «سُلافَةُ بنت سعْدٍ» تَذْرَعُ الدَّار جيئةً وذهاباً لا تكُفُّ عن الحـركة ولا تَهْـدأ. . ، في عصبيَّةٍ ظـاهرةٍ وقلقٍ بيِّن. . . ، تـريد أَنْ تَـطْمَئِنَّ على ٱبْنهـا ـ وحيـدها ـ الـذي خَرَج مـع «قريش» إلى «بـدْر» لِتمنع قافلتها وأمْوالها من أيدي المسلمين. . !

الدَّمْعةُ في عَيْنها ساخنة ساكنة، تتأرْجَحُ بٱضطرابٍ في مُقْلتِها. . . ، ولا تَتَحَدَّرُ على وَجْنَتَيْها. . . ، كأَنّهـا تُحِسُّ بالفاجعة وتُكابرُ في نَفْسها وأعمـاق وجْدانهـا! ! شَأْنها شأن أكثر المشركين.

لقد مَضَتْ أيّام. . . ، ولم يـأْتِ «مكة» من يُخْبـر النّاس بَخبَر «قريش»، رغم وُصُول القافلة سليمةً بقيادَةِ «أبي سُفْيان». .

وكانت «سُلافة» في حيْرتها وتردُّدها. . . وخَطْوهـا

في أرض الدَّار لا تطيق الجلوس، فإذا ما كلَّت وتَعِبَتْ وآستلْقت على أَقرب مقعدٍ أحسَّت كـأن وَخْزَالإِبَـرِ في جِسْمِها يشدها إلى الوقوف ثانيةً. . .، وذَرْع الدار طولاً وعَرْضاً. . .

عَزَفَتْ عن الطعام والشراب، ونَهَرَتْ موْلاتها حين دَعَتْها إلى تناوُله وقالت في حدّةٍ وغضب:

ـ أُتـركيني في همومي!!! إنّمـا طعـامي وشـرابي وراحتي في سلامة ولدي. . . وحيدي. .؛ فلن يقرّ لي قــرار حتى أَحْتضنه بَكلْتــا يــديَّ، وأتلمَّسُ وَجْهَــهُ بــأنــاملي. .، وأغمــرُهُ بقبــلاتي. . . وأضمــه إلى صــدري. . . وأَشـمّــه. . .، كُفّـي عنّـي يــا هــذه وآتركيني. . !!



نَذيرُ الشَّر

وحين أرخى الليـل سُدولَـهُ[1] على الكوْن، ولفَّ «مكّة» الصَّمْتُ. . ازدادَتْ «سُلافةُ» قَلَقاً، وٱضطربت أكثـر من ذي قبْـل. . .، ولم تُـطق الفـراش. . ولا الرُّقاد. . .، وزادها ظلام اللَّيْل الدَّامس خَوْفاً وجَزَعاً، وكذلك السُّكون والهدوء اللذان يُشْبهانِ هدوءَ وسكونَ المقابر. . . ثم مضى الهزيعُ[2] الأَوّل من اللَّيْل. . .

وفَجأةً تعالت أَصْواتُ العويـل والنَّحيب. . . وضجتْ أرجاءُ «مكّة» بالصُّراخ الحزين والْوَلْوَلة. . .، فٱزدادت ضربـاتُ قلْبهـا. . . وتهيّجت عبراتُها في عَيْنَيْها. . .، ثم أَقْبَلَتْ نحو النّافِذَةِ تَفْتحهـا. . . لعلّها تقِفُ على السبب وتعرف الحقيقة. .

(١) السُّدُول: الستائر. يعني الظلام.

(٢) الهزيع: الجزْء.

وسَمِعَتْ لَغْطاً[1]. . ، ثم ٱتَّضحَ الكـلام، فعرفَتْ «سُلافَةُ» أن الهزيمة النَكْـراء قد أصـابت «قريْشـاً، في «بَـدْر»، وأن السّادة قـد مات أَكْثَـرُهُم، وأَنّ عـدداً من الْأَسْرى قد وقع في أيدي المسلمين. . .، وأن الناجين الفـارّين من الميـدان قـد تـاهُـوا في الـصَّحْـراء الشاسعة. . . يَسْعون إلى «مكّة». . .

عندئذٍ لم تُطِقْ «سُلافَـةُ» البقَاء لَحـظةً في الدّار، فسارت عَدْواً نحو الباب تُسابِقُه، تَطْلب الخروج سعياً وراء البحْث عن الحقيقة، والاطْمئنان على ٱبْنها. .

وإذا بالباب يُقْرَعُ قرْعـاً شديـداً. . .، و«سُلافَـةُ» عِنْدَهُ تُمْسِـكُ بِمَقْبضـه بيـدٍ مُـرْتَعِشَـةٍ مـرتجفـة، ثم فتحتْهُ. . .،

ورَأَتْ شَخْصاً أنكرتْهُ أوّلاً. . .، فقد كان مكشوف الـرَّأْس. . . ممزّق الثيـاب. . .، مُلَطَّخاً بـالـدَّم. . .

---

(١) اللّغط: الأصوات المختلفة.

مُعَفّراً بالتُّراب. . . قد تعرَّت إحدى ساقيْه حتى الْفَخذ. .

بدا لها مُشَوَّشاً تتراقصُ سقطاتُ نور المصباح الضَّئيل على وجْهه كأنّها الْأَشباح. . !

ثُمّ تَفرَّسَتْه. . فعرفَتْه. . ، إنَّه أَحَدُ أقربائها الذين ذَهَبوا إلى «بَدْر» مع «قُريش». . . ، ولا شكْ أنه قد جاءَها لِيُبَلِّغَها أمراً. . .

ارتكبتْ قليلاً. . . ، وذهَبَ بها خيالُها كُلّ مذْهب. . ، فلما رَأَتْه مُتهالكاً ويكادُ يسقُطُ أَرْضاً من الإعياء. . ، أمسكتْه وأدْخلَتْهُ. . . فآرتمى على أقرب مقعد. . ،

وبعد أن استعاد بَعْض وعْيه ونشاطِهِ. . . أَطْلعها على الخبر الفاجعة، الذي نزل عليها نُزُول الصاعقة. . . ، لقد أخبرها بموْت ابْنها!!!

لم تَصْرُخ. . . ولم تُوْلْول. . . بل جمدت في مكانها كالتمثال. . . ، كأحجار الآلهة التي تعْبد. . . ،

حتى الدموع التي كانت تجُول في عينيها قد جَفَّت. . .

وكانت «سَلافَةُ بِنْتُ سَعْدٍ» من نسَاءِ قريش الشَّديدات، ذات حَسَب ونَسَب، مُتَجبِّرة. . متكبِّرة. . مُتَغَطْرِسة. . .، تكرهُ الإسلام والمسلمين كُرْهاً بالغاً. . .

ولئن إضطربت وجزعت على ولدها، وحيدها، وأصابتْها هزيمة «قريش» في صميم كبريائها، وأَحْدث مَوْت ولدها جرْحاً عميقاً في قلْبها. . .، ولكنَّها بعد لحظاتٍ من هَوْل الصَّدْمة آسْتفاقت، وعاوَدَها غُرور الجاهِلِيِّين. . .، فتماسكتْ وسَأَلتْ:

ـ ومن الذي قَتَله؟

فَأَخْبَرها النّاعي[1] بأَنَّ القاتِل هو: «عاصم بن ثابت» ـ أَحَدُ الْأَنْصار من أَهْل «يَثْرِب». . .

فقالت وهي تُصِرُّ على أَسْنانها، ويقدحُ الشَّرَرُ من عينيها اللَّتين غاضَتْ دموعهما، وتَخرج الكلمات من

---

(١) النّاعي: الذي يَحْمل خبر الموْت.

فَمِهَا كأنّها السهام . . . أو الصواعق . . . .

ـ لَئِنْ أمْكَنَتْني الآلهــة من «عــاصـم» هــذا . . .
لأَشْرَبَنَّ الخمرْ في جُمْجُمَةِ رَأْسِهِ!!!



هكذا الحرب..؟!

ونعـودُ إلى ليْلةِ «بدْر» ونَتْـرُك الآن «سُـلافـة» مـع نَذْرها الشّرير البائس... ونذيرها اليائس..

كان رسُول الله ﷺ يَتَحـدَّثُ إلــى أَصْحـابِهِ ليْلة «بَــدْرٍ»...، وذلـك بعــد أَنْ رأى أَنَّـهُ لا مَفَــرَّ من المواجهة مع المشركين..، وأن «قُـريْشاً» قـد أَصرَّتْ على القتال والنِّزال...

وكان «عليه الصلاة والسلام» قد ٱسْتَفْتى أصحابَـهُ وٱستشارهم، فَأَيـدَهُ في مَوْقفـه المهاجـرون والأنْصار، على حدٍّ سواء، وقال «أبو بكر» و «عمر» فأَحْسنا، وقال «المقْـداد»(١) فأَحْسن..، وكـذلك «سعـد بن مُعاذٍ» ـ رضي الله عنهم ـ..

(١) «المقداد بن عمرو» ـ رضي الله عنه ـ، ويُقالُ له أيْضاً: «المقداد بن الأسْود».

ثُمّ سَأل «عليه الصلاة والسلام» أَصْحابه سُؤالاً فقال:

ـ كيْف تُقاتِلُون؟

ـ وهُنا يَبْرز اسْم «عاصمٍ» وَدَوْره... وخبرتُهُ وبطولتُه...، وشهادَةُ السَّماءِ له، وكذلك تَزْكِيَةُ النبيِّ ﷺ»...

فقد قام «عاصِمٌ» من بَيْن إخوانِهِ الأَنْصار، وحَمَل بيديه قَوْسَهُ وَنَبْلَهُ ثم قال:

ـ إذا كان القوم ـيعني الأعداءـ قريباً من مائتيْ ذارع.. كان الرَّمْيُ، وإذا دَنَوْا حتى تنالَهم الرِّماحُ كانَتِ المداعَسَةُ حتى تَقَصَّف..، فإذا تقصَّفَتْ وَضَعْناها ـ أي تركناها جانباً ـ وأَخَذْنا بالسُّيوف... وكانت المجالدة.

فقال النبيُّ ﷺ:

ـ [هكذا نزلت الحرْب.. مَنْ قاتَلَ فَلْيقاتِلْ كما يُقاتل «عاصم»].

دُعاءُ النبيِّ "صلى الله عليه وسلم"

وقَبْل أن يلْتَحِمَ الطرفانِ يَوْم «بَدْر».

قام النبيُّ ﷺ عند العريش الذي بُنَى له يدعو ربَّه، ويقُول:

ـ [اللَّهُمَّ هذه قريش قد أَتَتْ بخيْلها وخُيلائها تُريدُ أن تكذِّب رسُولك، اللهُمَّ فَنَصْرُك الذي وعَدْتني...، اللهم إن تَهْلك هذه العصابة لا تُعْبَد في الأَرْض بعد الْيَوْم].

وكان «عليه الصلاةُ والسَّلام» يَدْعُو في ضَراعةٍ...، وعيناهُ الشريفتانِ مغرورْقتانِ بالدُّموع...، ويداهُ مبسوطتانِ إلى الأَعْلى...، وصوتُهُ يشتدّ في الْعُلُوّ...

ثُمّ يَزلّ رداؤه عن منْكِبَيْه، فَيسويه «أبو بكْر» ـ رضي الله عنه ـ ويقول:

ـ بعْض مناشَدتِك ربَّك يا رسُول الله فإن الله مُنْجِزُك ما وَعَدَك.

وخَفَق «عليه الصلاة والسَّلام» خَفْقَةً من نُعاس، فرأى مصارع الْقَوْم من المشركين، ثم نَزَل إلى الميدان، يُسوّي الصُّفوف، ويحثّ المؤمنين على القتال.

وكان قد مرَّ على «عاصم» فيمن مرَّ عَلَيْهم من أصحابِهِ...

البسْمةُ تَعْلُو ثَغْرَهُ الشريف، وكلماتُه تَنْفُذُ إلى أعماقِ النُّفُوس!!!، ولقد ٱلْتَهَب «عاصِمٌ» حماساً، وَسَرَت في كيانِهِ قشعريرةٌ ما أحسَّ بمثلها من قَبْل.



البطل في الميدان

وحين أُعْطى الإِذْن بالالْتحام. . . ، كان «عاصِمٌ» يجـولُ ويصُـول. . . ، يخـوضُ الصُّفـوف حتى يبلغ آخرها، يَضْرِبُ بسيْفِهِ البتّـار[1] رؤوس الأعْداء، ويقُطُّ رقابَهُم. . . ، مُتَنَبِّهاً حَذِراً. . لا يُؤْخذ من الوراء أبداً. .

لم يكن يمتطي جواداً ولا ناقةً، بل كان من الرّجالة الْمُشاة. . . ، يسعى على قدميْه. . . وهو أَنْشَطُ من أيِّ فارس. . .

حتى جَنْدل في ذلك الْيَوْم أكثر من سَبْعةٍ من المشركين، غَيْر الَّذين أصابهم إصاباتٍ مباشرة، وجَرَحهم جراحاتٍ بالغة.

وكان من بَيْن الذين سقطوا صَرْعي بسَيْفِهِ ابن «سُلافة بنت سعد»، وكان فتىً غَضّاً، طريَّ العُود،

(١) البتّار: القاطع.

قَسَرَتْهُ أُمُّه على الخروج، ولم يَكُنْ لهُ في ذلك رغْبة.

وكما نُقِل إلى «هند بنْت عُتبةَ» نبأ مَصْرع أَبيها وأخويْها على يَدِ سيِّد الشهداء «حمزة» فحقدتْ عليْه وبيَّتَتْ لهُ الثَّأْر، كذلك نُقِل إلى «سُلافة» نبأُ مَصْرع ولدها على يد «عاصم» فَنَذَرَتْ نذرها البائس الشرّير.

ولقد نُقِل إلى «عاصم» نبأُ مقالة «سُلافة» ونذْرها، فكان يَسْخر من قوْلها، ويهزأ من سخافةِ أمَلها وتحالُفها مع الشَّيْطان...

وعليْه...

فقد خاض معركة «أُحُدٍ» وهُو أكثر ثِقَةٍ بالله، وتقرُّباً منه، وثباتاً أمام جَيْشِ العدو، ودِفاعاً عن رسُولِ الله «...»، وخَرَجَ من المعركة رافع الرأْس ناصِعَ الجبين، سليماً مُعافى...

ولكن بآنتظار يوم الكرامة!!!



شهيدُ "يَوْم الرَّجيع"..؟!

ومرَّت الأيام، وتعاقَبتِ الشُّهور. . . وآنْقَضَتْ غزوتَا «أُحُدٍ» و «حَمْراء الأَسَد»، وكان من الوقائع والأحداث ما كان. . .

حتى جاءَ يَوْمٌ حَضرَ فيه إلى «المدينة المنوَّرة» وفْد من قبيلَتَيْ: «عَضَل» و «القارة»، وهما من قبيلة «الْهَوْن». . .، فقابَلُوا رسُول الله ﷺ وأَخْبروهُ بأَنّ فيهم من قد آمن وأسْلم، وأَنَّهُم بحاجةٍ إلى مَنْ يُفقِّهُهُم ويُعلِّمهم الدّين، وطلبوا منه ﷺ أن يُرْسل مَعَهُم بَعْض الدُّعاة. . .

وكانُوا صادِقين. . .

فَأَمْهلهم «عليه الصلاة والسَّلامُ» إلى اليوْم التّالي. .

ثم اسْتَدْعى إلَيْه سِتَّةً من خِيار شباب الصحابة،

شجاعةً وعِلْماً وإيماناً، وَهُمْ:

«مَرْثَدُ بن أبي مَرْثدٍ»

و «خالد بن الْبُكَيْر»

و «خُبَيْب بن عديّ»

و «زيْدُ بن الدَّثِنَّة».

و «عبد الله بن طارق».

و «عاصِمُ بن ثابت بن أبي الْأَقْلح»!!

وأَمَّر عَلَيْهم «عاصِماً» ووصَّاهم... ودعا لهُمْ بخير..

وفي اليَوْم التالي خَرَج هؤلاء النَّفَرُ الكرام مع وفْد «عَضَل» و «القارة» من «المدينة» بآتجاه منازل قبيلة «الهون»، قريباً من «مكّة».

كان الطريق شاقّاً عسيراً، وطويلاً...، تعترضُ السائر فيه وهادٌ ومهاد، كُثْبانٌ وجبال...، يغذّون السير لَيْلاً ونهاراً، تارة فوق رواحلهم، وأُخْرى على أَقْدامهم...، ثم بعد ذلك اتَّخذوا طريق الساحل بمحاذاة سلسلة جبال «الحجاز» التي تحجز بَيْن

الصَّحـراء الممتـدةّ الشـاسعـة وبين شـاطىء البحْـر الأحْمر. . .

كـانُـوا يَقْـطعـون الـوقْت ويـروّحُـون عن أنْفُسهم بـالْحُداء مـرَّة، وبالحـديث مرَّة أُخْـرى، أمّـا الشّبـاب المسلم، من الـدُّعاة فمـا كانـوا يَفْتَأُون يـذكـرون الله تعـالى، ويقرءون القُـرآن. . .، ويتدارسُـونه. . .، ثم يؤدُّون فرائضَ رَبِّهم في خُشُوعٍ وضراعة. . . ويُعطون بذلك المثل الأَسْمى على المؤمن الصادق.

وعرف وفْد «عَضَلٍ» و «القارة» شخصيَّة كُلّ واحدٍ من هؤلاء الشبّـاب المسلم. . . اسْمـه، ونَسَبَـهُ. . . وآنتماءَهُ. . . وَفِعالَهُ. . .، ومكانَتَه. . .، فعظمـوا في أَعْيُنِهم. . !!



الْغَــدْر

وعندما بلغوا في مسيرهم ناحيةً تُـدْعى «الرَّجيـع» وهُو ماءٌ لقبيلة «هُذَيْلٍ» كان اللَّيْل قد خَيَّم عَلَيْهم بسوادِهِ الشِّديد، وكانَتْ ليلةً غاب فيها الْقَمَر مُبَكِّراً. . .، وقد أَخَذ منهم التّعب والجهد كُلّ مَأْخذ قالُوا:

ـ فَلْنُقِم لَيْلَتنا هُنا. . .، نَلْتمس الراحـة. . .، ثُمّ نَمْضي في الطريق إلى وُجْهتنا مع فَلَق الصُبْح. . !

ثم نزلُوا. .، فأقامُوا خيامهم، وتناوَلُوا طعامهم. . وسَمَروا[1] بَعْض الوقت. .، ثُمّ أَخْلدوا إلى النَّوْم.

لكنَّ رجـال «عَضَـلٍ» و «القـارة» لَـعِبَتْ بهـم وسـاوِسُهُم. .، وآسْتَفْرَغَ «إبليسُ» حيلته ووسْعَـهُ في إثـارَةِ شُرور نُفُوسهم، فتيقظَتْ وأَطلَّتْ بـرؤوسهـا من

(١) السَّمَرُ: حديث اللَّيْل.

مكانها في أعماقهم، كأنهـا بناتُ الشَّيْـطان. . . تُغْري بالْغَدْر. . . ! !

وقال قائِلُهُم، ولعلَّه كان إبليسُهُم:

ـ لقد قطعنا شوْطاً بعيداً عن «يثرب»، وما هُـوَ إلاّ يوم وليلة حتى نحطّ الرِّحال في ديارنـا. . .، ولم يعُد بإمكان مرافقينا ـ رُسُل «محمد» ـ أنْ يَسْتَنْجدوا لوْ غَدَرْنا بِهِم. . وتاجَرْنا. . . وقَبَضْنا الثَّمن. . ! !

وَقَعَتْ كلماتُه على نُفُوس أَصْحـابِـهِ كـالقـارعة، ففغروا[1] أَفْوَاهَهُم. . .

وآتْسَعَتْ حدقاتُ عيونِهم، وآشْرأبَّتْ أعناقُهُم. .، وسَكَتُوا قليلاً. . .، ليس سكـوت مراجعـة النَّفْس، أو إستنْكار الأَمْر وآسْتِهْجـان ما يَسْمَعُـون. .، أبداً. . .، بل كانوا في دخائل قُلوبِهِم قاب قوسيْن أَوْ أَدنى من كُلّ شَرٍّ وإِثْم. . .

فقال أَحَدُهم لصاحِبِه وهُو يُحاوِرُه:

---

(١) فَغَزوا: فَتَحُوا.

ـ ولكنّنا في عَدَدَنا وعُدَّتنا وكفاءَتنا لا نستطيع مُواجهة رُسُل «محمد» والتّغَلُّب عليهم، وأَنْتَ وَنَحْن، نَعْلَمُ من هُم في قُوّة شكيمتهم وشدَّة عزائمهم... وفروسيتهم..؛ وأيضاً قُلْ لي: كيف تكُونُ التِّجارة بِهِم واكتساب المال؟؟

قال إبليسُهُم وشيْطانُهم:

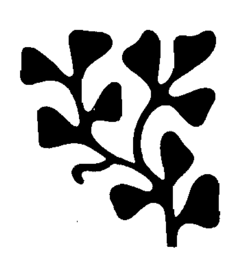
ـ إنّ الْأَمْر هيِّنٌ جداً، وفي غاية البساطة...، ولا يُثير شُكُوكَهُم...، تعلمون أننا قد حاذيْنا قبيلة «هُذَيْل»، وهي معروفة في عدائها للمسلمين، وترْغب في النَّيْل مِنْهُم...، فلو أن أحدنا آستطاع أن يتسلّل إلى «هُذيل» فيُخْبرها لجاءَتْ بقضِّها وقضيضها، وأحاطت بنا وبرُسُلِ «محمد» وقَضَتْ عليهم جميعاً..، ونَقْبِض الثَّمن، ولا نُثير الشُّبْهات... وكأننا وَقَعْنا معهم في الشَّرَك..!!

قال ذلك وراح يَتَفَحَّص وُجُوه أَصْحابِهِ، فَوَجَدَهُم غير مُعْتَرضين.

وَلَمَحَ أَنّ إِشْراقَةَ الطَّمع بالمالِ قــد لاحـتْ فـي عُيُونِهِم، فتابَعَ يقول:

- وسَأُوفِّر عَلَيْكُم مؤونة آسْتدعاء الْهُذَليِّين..، فأنا مُتطوِّع لذلك...

ثم قام من بَيْنهم يَسْعى، وكَأَنَّه الثُّعْبان...، ولم يكُن فيهم رجُلٌ رشيد يحـذّرهم، ويمنعهم من الْغَدْر، والإِبقـاء على الـوعْـد الـذي وعـدوه لـرسُـول الله ﷺ بالحفاظ على أصحابِهِ...



في ديار "هُذيل"

وأَقْبل على مضارب القوم وديارهم، وقد غرِقتْ في لُجَّة ظُلْمةِ اللَّيْل. . . ، إلّا أنّ كلابَهُم هرَّتْهُ ونَبَحَتْ في وَجْهِهِ. . . ، فَتَرجَّل عن رَكُوبِهِ. . . ، وما وجد نفسه إلّا وقد أحاطَتْ بـهِ جماعَـةٌ من الهذليِّين، في أيـديهم السُّيُوف المشرعة، يلمعُ نَصْلها في اللَّيْل الحالك كأَنَّه البرْق الخاطف، فَأَصابَتْه رعْدة الخوْف فقال متلَعْثِماً:

ـ أَ. . أنا. . حـ. . . حليف. . .

فقالُوا:

ـ ومن تكون؟ وأَيُّ الحلفاء أَنْت؟؟

قـالُوا ذلـك وقـد انخَفَضت أيـديهم بـالسُّيُـوف، فعادت إليه طُمَأْنينته. . . ، فقال وقد سُرِّي عنه:

خُذوني إلى رحْل سيِّدكم. . . ، فإن لهُ عِنْدي خَبَرٌ وَنَبَأٌ عظيم. . . ، وهديَّة. . . أَيْضاً.

ـ إذاً... أَنْت من «عَضَلٍ»... ومَعَكَ سِتَّةٌ من أصْحاب «محمد»... فيهم «عاصِمُ بن ثابت»!!! هذا أَمْرٌ كبير وخطير...،

فِعْلاً تَستحِقُّ عَلَيْه مكافأة...، وعِوَضاً من المال مُجْزِياً..

قال سيِّد الهُذليّين ذلك، ثم أضاف:

ـ وأَيْن هُم الآن..؟

فأجاب:

ـ قريباً... عند ماء «الرَّجيع»..!

ثم قام السيِّد يدْعُو أَصْحابَهُ وخاصَّتَهُ، وأَرْسَلَ إليهم في أَخْبيتهِم ومنازلهم مَنْ يأْتي بهم..،

فاجتمع لديْه ما يزيد على سَبْعين من الفرسان الأَشِدّاء، وأَخْبَرَهُم بما سَمِع، وطَلَب إليْهم أن يستعدُّوا للإغارة... وعلى جناح السُّرْعة.

ولقد كان للهُذَلِيِّين أسْرى عند «قريش» وها هي ذي الفُرْصة تأْتيهم للمقايضة!!!

كما أَنَّهم كانُوا مُتَعَطِّشين لِسفْك دماء المسلمين.
ثم خَرَجُوا...

أما الشبّاب المسلم فقد كانوا في رَحْلِهِم آمنين راقدين مُطمئنين، لا يدرُون ما يُبيِّتُ لهم الغادرون.

قد أدَّوْا فريضة ربِّهم، وصَلَّوا عِشاءَهم، وآستسْلَمُوا للرُّقاد بَعْدَ جُهْد النّهار.

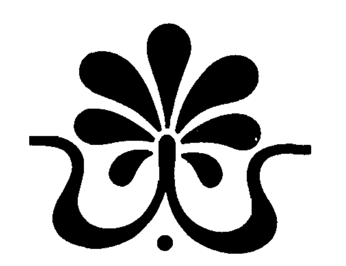
وفي عَتْمةِ الصبَّاح، قَبْل ضَوْء الفجر الْفضِّيّ آسْتَيْقظوا فجأةً على جَلَبَةِ أصواتِ. حَمْحَمَةِ خَيْل وقَعْقَعةِ سِلاح، وإنْذارٍ بالاستسلام، فَهَبُّوا إلى سلاحهم وخرجُوا من خبائِهِم...، فإذا أكثر من سبعين فارساً من قبيلة «هُذَيْل» يُحيطون بهِم...، ويتَحلَّقون حَوْلهم... قد سَدّوا عَلَيْهم المنافِذْ بَيْن التلال الرملية: . وفَوْقها..

فَسَأَلهم «عاصِم»:

ـ من أَنْتُم؟ وماذا تُريدون؟

فقالوا:

ـ من «هُذَيل» وإنّا والله ما نُريدُ قَتْلَكُم. . . ، ولكنا نريد أن نُصيبَ بكُم شيئاً من أهل «مكـة»، ولكُم عهد الله وميثاقه أن لا نَقْتُلكم!!!



عهد الله وميثاقه

كان «عاصِمٌ» ممّن بايَعُوا رسُول الله ﷺ «بيعة العقبة» قبل الْهِجْرَة، وكان حينئذٍ فتىً في مُقْتَبَلِ الشباب، يمتليء حماساً، ويتوقّد طُهْراً وإيماناً، ولقد نَذَر أَنْ لا يمسَّهُ مشرك... ولا يَمَسّ مشرِكاً أبداً في حياتِهِ..، وعَرَف بهذا النَّذْرِ أكثر الناس، فكانُوا يُكْبِرونَ في «عاصمٍ» صفاءَ وجْدانه ونقاءَ سريرتِهِ وصِدْق عزيمتِهِ..

فكيْف له الآن أَن ينقض هذا العهْد والميثاق؟ حتى ولوْ كان الموْت يَتَرَصَّدُهُ!!!

عندما سمع «عاصِمٌ» مقالة الهُذليّين الباطلة وأكذوبَتَهُم الفاضِحة، ثارتْ نَفْسه، وجاش حماسُه، واتّخذ قراره... وردَّ عَلَيْهم:

ـ والله ما أَقْبَلُ من مُشْرِك عَهْداً ولا عقْداً أبداً..

ووافقه على رَأْيِهِ. من إِخْوانِهِ «مَرْثَد» و «خالد». . . .

وٱتَّخذوا مواقِعهم لِلْقتال، وهم يعلمون النهاية المحْتُومة.

أما «خُبَيْب» و «زيْد» و «عبد الله بنُ طارق» فقد لانُوا ورقُّوا ورغبُوا في الحياة، وإسْتسْلموا للهُذليِّين فَأَسَرُوهم!!

وحاول الهذليُّون أن يُثنوا «**عاصماً**» ومن معه عن مَوْقفهم بشتّى الوسائل ولكن من غير فِائِدَةٍ تُرجى. . .

وَرَدَّ عليهم بقولِهِ:

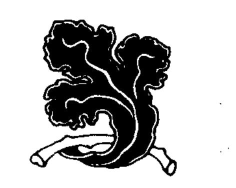
مـا عِلَّتي وأنـا جَلدٌ نـابـلُ
والقـوْس فيهـا وَتَـر عنـابـلُ
تَـزِلُّ عن صَفحتهـا المعـابـلُ
المـوْتُ حقٌ. . والحيـاةُبـاطِلُ
وكُـلُّ مـا حَـمَّ الإِلـٰه نـازلٌ
بـالمرْء، والمَـرْءُ إليْـه آيـلُ
إنْ لم أُقاتِلْكُم فِأُمّي هابِلُ

وأَتْبَع قَوْلـه هذا بِسَهْمٍ من جُعْبَتِـهِ أَطْلَقَهُ بـاتّجاه القوْم، فَأَصاب أحدهُم فأَرْدَاهُ قتيلاً...

وكان رامياً مشهوراً نادراً ما يُخطىء هدفه...

وظَلَّ التراشقُ بالسِّهام مُسْتمراً بَيْن الطرفيْن، حتى نَفـذَتْ جُعْبَةُ «عـاصمٍ»، وكذلـك صاحبـاه: «مَـرْثـد» و «خالد».

عندئذٍ ٱستـلَّ سَيْفه من غِمْـدِهِ وواجه الْقَـوْم، وقد دَنَوا مِنْ بَعْضِهِم، وما زال مع أخويْه يُقاتِلُون حتى تكاثر عَلَيْهِم الْفُـرْسـان، وكلَّتْ ســواعِـدُهُم... فَسَقَـطوا صَرْعى... شُهداء...



رأسُ «عاصِم»...

ونادى مُنادي الْهُذَلِيِّين:

ـ عَلَيْكم بـ «عاصِمٍ»...، إحْتَزُّوا رَأْسَهُ وآئْتُوا بها، فإنَّ له في «مكّة» صاحِبةً تُريدها...، تدْفَعُ فيها أعلى الأسعار وأغْلى الأثمان..!

كان الوقْتُ ما بَيْن الضُّحى إلى الظَّهيرة...، وقد إشْتَدَّ لَهَبُ الرِّمالِ تَحْت وَطْأةِ أشِعَّة الشمس الحارقة..

فلما دَنُوا من جُثَّةِ «عاصم» الممدَّدة على الأَرْض، وقد آنتاشَتْها(1) السُّيوف وما تركت فيها مَوْضِعاً إلا وفيه جُرْحُ دامٍ... ظَهَرتْ عليهم ظَاهِرَةٌ غريبة... أَخّرَتْهم عنه!!!،

لقد ثارت في وُجُوهِهِم أَسْرابٌ من الدَّبابير..

(1) انْتاشَتْها: أصابتْها فَمَزَّقَتْها.

تَؤُزُّهُم أَزّاً. . . ، وتطـنُّ طنينـاً مُـدوّيّـاً كَـأَنَّـه رَجْـع الـرُّعُود. . . ، وتُحَـوِّم فَوْق الْجُثَّـة، كأَنَّها تَحْميهـا. . فتراجعوا مبْهوتين مذعُورين. .

وكُلّما حاولوا العودة. . كـانت الذَّبـابير تشتـد في الهياج. . .

فقال أحدهم:

ـ نَتْرك ذلك الآن، إلى اللَّيل. . . ، عساهـا تأوي إلى أَوْكارها وخلاياها، لأَن هياجها إنما سببه شدة الحر ولَفْح الهجير، فإذا ما برد الهواء سكنت وهدأت. . . ، وعندئذ نَحْتزّ الرأَس ونحملها إلى «مكّة».



لَيْلَةُ عاصِمٍ

فجلسوا يَنْتظرون. . . ،

وكانوا يتحدثون حديث الْأَمانيّ والْأَحْلام. . . ويُؤمّلون في مالٍ جزيلٍ يُصيبونَهُ من «سُلافَةَ بنْت سعْد» التي أقْسمت إن أمكنتْها الآلهة من «عاصمٍ» لَتَشْرَبَنَّ الخَمْر في قَحْفِ(1) رَأْسِهِ!!!

وعنْد غروب الشَّمس، وقد آستعدَّ القوْم للنهوض إلى حيْث جُثّة «عاصم» كيْ يَحْتَزّوا الْرأْس. . .

تَغَيَّر الجوُّ فَجْأة. . . ، ومن دون سابقِ إنذار. . .

تَلَبَّدت السماء بالغيوم الداكنة السوداء. . . ، وعَصَفَتِ الرّياح الباردة. . . ، وآشْتد البرْق والرعْد، ثم هطلت الأمطار غزيرة كأنها أفواهُ الْقِرَب. . . وامتلأت الأودية بالسُّيول. . .

---

(1) قَحْف الرأس: الجمْجُمة.

أمّا الهذليُّون، المنتظرون. . .، فقد آحْتموا بالأشجار عند التّلال. . . وكذلك في جوْف أَخْبيتهم، يَتَّقون الْبَرْد القارس والمطر المنْهمر. .
وحَمَل السَّيْل جُثَّة «عاصِمٍ» فغيَّبها. . .

وكانت ليلة ليْلاء، ما شهدت أرض «الرَّجيع» مِثْلها. . .، وقد استمرَّ الجوُّ العاصف حتى الصباح،

فلما أشْرقت الأرض بنُور رَبِّها، وأطلَّت الغزالة بشُعاعِها الذّهبيّ تُرْسله على الأرض، وهدأ كُلّ شيء. . .، تقدَّم الهُذَليُّون إلى حَيْث تركُوا جُثَّة «عاصم» بالأمْس الدابر. . .، فلم يَجِدُوها. . .

لقد آختفت!!!،
فآنطلقوا بكُلٍ آتجاه يَبْحثون، فما تركوا وادياً إلّا أَتَوه، ولا جهةً في محيطهم إلّا فَتَّشوها، وَقضَوْا وَقْتاً طويلاً في التَّنْقيب. . .، حتى إذا يئسوا وجَهِدُوا تَقهْقروا خائبين، تَفْري قُلُوبَهُم الحسْرة. . .

وقال زعيمُهُم:

ـ إنّ لنـا فيما بقي معنـا من الْأَسْرى عِـوَضاً عمّـا فـاتنا. . ، فهيّـا نَحْمُلُهم إلى «مكّـة». . ونبيعهُم مِمَّنْ يَشْتريهم.



الجُثّةُ المخْتَفِيَة

تُرى أَيْن هي جُثَّةُ «عاصم بن ثابتٍ»؟؟

هل غاضَتْ في باطنِ الأَرض وطواها التُّراب، وتكاثَفَتْ فوقها الرّمال!!؟ أمْ أَنّ السَّيْل حملها بعيداً بعيداً.. في الْقِيعان والوِدْيان؟؟

أَمْ أَنْ وُحُوشاً كاسِرةً وسباعاً ضاريَةً انْقَضَّتْ عَلَيْها فَنَهَشَتْها، ثم تركَتْها هيكلاً من العظام، شَأنها في ذلك شَأن العظام المنتشرة في بَيْداء الصحْراء..؟

أَمْ أَنَّ ملائكة السماء بإذْن رَبِّها قد حملتْها وغَيَّبتْها، ثُمّ تركتْها على الدَّهر سِرّاً من الأَسْرار لا يُدْرِكُهُ ولا يعْلَمُه إلّا الله وَحْدَه...، والراسخُون في الإيمان يقولون: سُبْحانَ الله!!!

تِلْك هي الحقيقة.

لقد حوَّمت حَوْلها وفوْقها أسْراب الدَّبابير، من غير أن تمسَّهـا بِسْوء، ومَنعَتْهـا من أيدي السُّـوء، وَإِنّ في ذلك لَحكْمة!!!



العبد المؤمنُ في حِفْظِ الله تعالى..

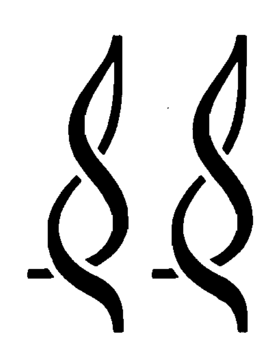
وعندما رُوِيَتْ لسيِّدنا «عُمَر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ قِصَّةُ الدبابير التي حَمَتْ وحَفِظَتْ جُثّة «عاصم»، ثم ٱجْتماع السَّيْل لها وتغييبها. . .، قال:

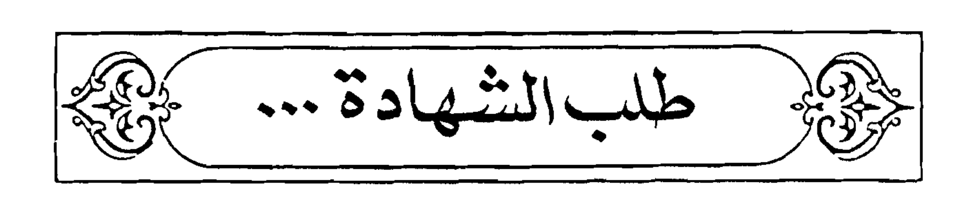
ـ (يحفظ الله العبْد المؤمن، كان «عاصمٌ» نَذَر أنْ لا يمسَّهُ مُشْرِك، ولا يمسّ مُشْركاً أَبَداً في حياتِهِ، فَمَنَعَهُ الله بعد وفاتِهِ، كما امتَنَعَ منه في حياته).

وأَنْشَد «حسّان بن ثابتٍ» يرثيه ويهاجمُ «هُذَيْلا»:

لَعَمْري . . . لقد شانَتْ «هُذَيل بن مُدْرك»
أحاديثُ كانت في «خُبَيْب» و «عاصِمٍ»
هُمُ غَدَروا يَوْم «الرَّجيع» وأسلمت
أمانتهم ذا عِفَّةٍ ومكارم

رسُولَ رسُـــولِ اللهِ غَدْراً، ولم تكُنْ
«هُـــذَيْلُ» تَوَقّى مُنْكـــرات المحارم
أبـــابيـل دُبــر شـــمس ٍ دُون لَحْمِـهِ
حَمَتْ لَحْـــم شَهَّادٍ عِظَامِ الملاحِمِ





طلب الشهادة ...

وآنـطلقُوا إلى «أمِّ القُـرى». . . ، حتى بلغُـوا «مـر الـظَهْرانِ» وبـاتُـوا قـريبـاً منهـا. . . وفي الـطريق بَيْن «الرَّجيع» و «مرِّ الظِّهْرّان» كان حديثٌ لِلنَّفْس مع «عبد الله بن طارق» أحد الأَسرى الثلاثة. .

قالت النَّفْس:

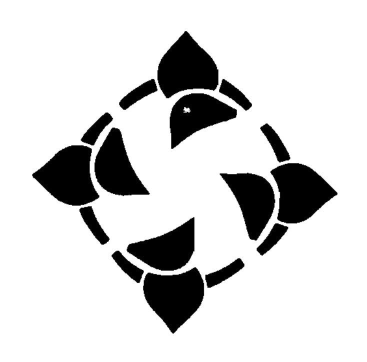
ـ وَيْحـك يا «عبْـد الله». . . إن المصيـر واحـد، سواء كان في ميْدانِ الْقِتال أوْ صبْـراً بالسَّيف، أوْ على أعْـواد المشـانق. . . أوِ الصَّـلْب. . . إنّـه الـمْـوت والنهـايـة، أمـا سَمِعْتَ قـول «عـاصم»: المـوت حق والحياة باطل وكُلّ ما حَمَّ الإِلٰه نازل بالمرءْ. . . والمرْء إليه آيلُ. . ؟؟

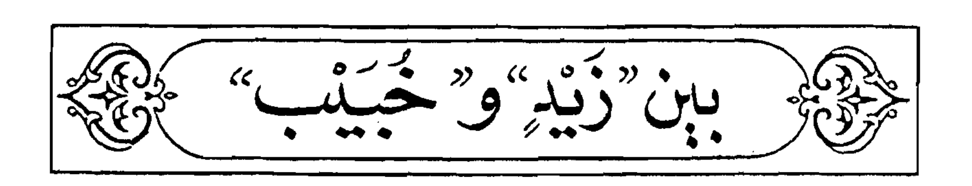
أمـا رَأَيْت الكـرامـة التي أكْـرم الله تعـالى بهـا «عاصماً». . ، لقـد آستشهد في سبيله. . . ؛ ثم حمى

جُثّته من عَبَث أيْدي المشركين. . ؟؟

أوْلى لَـــكَ فَـــأوْلى أنْ تلْحق بِــهِ وتَـنْـســج عـلى مِنْوالِهِ. . !

وحذارِ من عَسْفِ «قُرَيش» وإذلالها لَكَ!؟





وبقي «زيد» و «خُبَيْب» في الْأَسْر. . .

قد شُدّا وثاقاً، وسُلْسِلاَ في سِلْسلةٍ واحدة، أَحَدُهما خلْف الآخر. . .، يُجَرّان جَرّاً. . .، قد حَفِيتْ أَقدامهما وتقطعت نعالهما. . وتعفَّر وجْهاهْما بالتُّراب والرَّمْل، كُلّما سَقَطا أرْضاً من الإعياء امتصّ عَرَق الوجْه والجبهة ذرَّات التراب. . .

ونادى «زيد» على «خُبَيْبٍ» وهو يلْهَثُ:

ـ أما كان الْأَجْدرُ بنا يا «خُبَيْب» أن نتخلّص من الْقَيْد. . . ونواجه هؤلاء الجلادين الذين لا يَرْحموننا بسيوفنا، ولئن قُتلْنا فذلك أهْوَنُ لنا من هذا العذاب المهين. . .، فإننا ـ والحقُّ يُقال ـ نموتُ أكثر من مَرَّةٍ، ونلْقى من الشدّة والبلاء ما لا يطيقُه بَشَر. . .

ألَيْسَ لنا في الذين سبقونا عِبْرة!!!

فَتَنَهَّد «خُبَيْب» تنهيدةً حرّى . . . كادت تَخرجُ معها أنفاسُه . . . ، ثم قال بصوْتٍ متهدِّج متقطّع :

يرحمك الله يا أخي «زيْد» . . . ، لقد حاولْتُ ذلك عندما انْسَلَّ «عبد الله» من قَيْدِهِ، ولكن قَيْدي كان مُحْكماً . . . ، فلم أستطع شيئاً . . . ، وإنما كانَتْ رغبتي في الشهادة في سبيل الله . . . ، وهي لن تفوتنا إن شاء الله ! ! ! وسكت قليلاً ريْثما مرَّ الحارسُ بفرسِهِ مِنْ حَوْله، ثم تابع :

ـ وعلى كُلّ حال فإنّ لنا فيما نَحْن فيه لأجراً غير مَمْنُون . . . ، نتحمل العذاب والشّدّة، ونَصبْر على البلاء، فنغيظ العدوّ ولا نُظْهِرُ له الضّعف أبداً . . . ، والله وحده صاحبُ التقدير والتدبير، وهو مولانا وصاحِبُ الحكْمة في أمرنا كُلّه .

قال «زيْد» :

ـ صَدَقْتَ يا «خُبيب» . . . صدقت يا أخي . . . ، الله يتولاني وإيّاك، عليْه توكّلْتُ، وإليْهِ أُنيب .

ثم تلا :

﴿ولمَن صَبَر وغَفَر إن ذلك لِمَنْ عَزْمِ الأمور﴾ .

فقال «خُبْيب» :

ـ صَدَقَ الله العظيم .

عند هذا الحدّ من حديث النفس وجـد «عبد الله» يديْه قد آنسلَّتا مِنَ الْقَيْد . . . وآنطلقتا حُرّتَيْن . . . ، وقد آنْتَضى سيْفَـهُ بيمِينِهَ ، وتَـأَخَّر عن الـرّكْب قليـلاً . . . ، فأحَسُّوا بِهِ ، ثم أحاطُوهُ . . . ومازالُوا يرمُونَهُ بـالحجارَةِ حتّى سَقَطَ شهيداً مُضَرَّجاً بالدِّماء . .



في "مكَّة"

ثُم أتى الهذليُّون «مكّة» ومعهم «زَيْد» و «خُبَيْب»، أسيرَيْن مغلولَيْن... فَتَحلَّق من حوْلهم أُناسٌ قد سقط لهم في «بَدْر» قتْلى من أقربائهم وأهليهم، يريدُون أنّ يشتروهما ليقتلوهُما ثأْراً وشفاءً لما في الصُّدور.

وتمَّت الصّفقة...، وعاد الهُذليُّون بأَسيرَيْن لهم عند «قريش»...

ولقد آشترى «خُبَيْباً» رجُل يُـدْعى «حُجَيْر ابن أبي إهاب»، وآشترى «زيْداً» ـ «صَفْوانُ بن أُمَيّة» ـ



أمّا «زَيْد» فقد بدءوا بهِ . . .

أخْـرجُوه من «مكَـة» إلى ضاحيـةٍ تُدْعى «التّنعيم» حتى لا يكُون قتْلُهُ في الْحَرَم!!

كان يسوقُهُ إلى حتْفِهِ رجُـل يعمل عنـد «صفوان» اسمُه «نِسْطاس» . . . ، قد كُلّف ضرْب عُنُقِهِ، و «زيْد» - رضي الله عنه - مقيّد اليديْن . . . ، يُحيطُ بِهِ رهْط من «قـريشٍ» يريـدُون أنْ يُشاهـدوا الْحفْـل!!! قـد عَلّتْ قهْقَهـاتُهم . . . ، وضّجت بسبابِهِم وشتـائمهم رحبـاتُ الفضاء!!

أمـا «زيْـد» فكـانَتْ شفتـاهُ تُتَمْتِمـان بِـآيـاتٍ من القُرآن . . . ، يَنْظُر إلى النّاس الذين يُحيطون بِهِ نظرات السُّخرية والاستخفاف.

ولقــد أثـارَ منــظر «زَيْــد»، في ثبــاتِــهِ وثقتِــهِ

وشجاعتِهِ. . . نَفْس «أبي سفيان» الذي كان على رأْس الْقـوم، فأراد أنْ يَعْـرِف حقيقة مـا تنـطوي عليـه نَفْس «زيْد». . . ، هل يتظاهر بالطمأْنينة تظاهراً أجْوف؟؟ أم أنّه صادِقٌ؟؟

فلمّا بَلَغُوا «التَّنْعيم» وحانت السَّاعةُ، وُقُدِّم «زيْـد» لِيَضْـرِب «نسْـطاسُ» عُنُقـه بـرز «أبـو سُفْيـانٍ» من بَيْن الناس، وٱقْترب من «زَيْد» وسَأَلَـه بصْوت عـالٍ سَمِعَهُ الجميع:

ـ أنْشـدك الله يا «زيْـد». . . أَتُحِبُّ أنَّ «محمـداً» عندنا الآن في مكـانك، نضْـرِبُ عُنُقَهُ. . . وأنَّـك في أهْلِكَ؟؟

فأجابَهُ «زَيْد»، وبِصَوْتٍ أعلى وأقْوى:

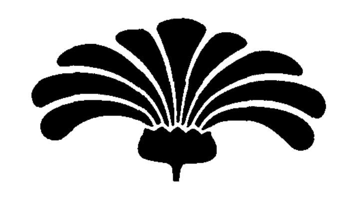
ـ والله ما أُحِبُّ أن «محمداً» الآن في مكانِه الذي هُـوَ فيـه تُصيبُـهُ شَـوْكَـةٌ تُؤذيـه. . . وأني جـالس في أهْلي. . !!

وضُرِبَتْ عُنُق «زيْد»، وٱرتفعتْ رُوح الشهيـد الخامس

إلى بارئها، تنْعم بالرَّوْح والريْحان . . . فِي الْجِنان .

وضَرَبَ «أبو سُفيان» كفّاً بِكَفٍّ غَيْظاً وحَسْرَةً. وراح يُردّد بصوْت سمعه كثير مِمَّن حوله :

ـ ما رَأَيْتُ من الناس أحداً كحُبّ أصحاب مُحَمَّدٍ «مُحَمَّداً» . . .





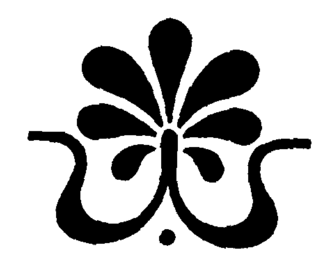
«خُبَيْب» في بيت «ماوِيَة»

وحُبِسَ «خُبَيْب» في بَيْت موْلاةٍ لِـ «حُجَيْر ابن أبي آهابٍ» تُدْعى: «ماوية»، بٱنْتظار يَوْم الْقتْل...

وكان خَبْسه ـ رضي الله عنه ـ خَلْوةً مع الله تعالى...، دائم التّلاوة للقرآنِ الكريم...، بِصَوْتٍ فيه رنَّةُ حُزْنٍ وخُشُوع، فكانت النّسْوةُ من جيران «ماوية» يتأثَّرْن بما يسمعْن، فيأْتين حتى يقتربْن من غرفة خَبْسه وَيَلْتَصِقْن بنافذتها ولا يستطْعن أن يَمْنَعْن أَنْفُسَهُنَّ غن البُّكاء!!

وكانتْ «ماويةُ» تتنصّتُ إليْه، وتتلصّصُ عليْه، ولقد رأَتْه ذات يَوْم يأْكُلُ عِنَباً...، في يده عُنْقود كبير بحجم رَأْس الـرَّجُل..، ولم يكن المـوْسم موسم عِنَبٍ!! فعجبت من ذلك أشدَّ الْعَجَب، ولكنها لم تتّعِظْ

ولم تعْتبر بما رَأْتْ وشاهدت، لِأَن على قلوب المشركين أقفالُها من الضلالة والوهْم. . . ورانِ الشَيْطان.



المؤْمن لا يغْـدر

قالت «ماوية» لِـ «خُبَيْب» ذات يوْم:

لقد جاءَني مـوْلاي «حُجَيْر» هـذا الصبّاح وأَبْلغني أنّ مَوْعد قَتْلك غداً، فَهَلْ لَكَ من حاجةٍ أَقْضيها؟؟.

قال «خُبَيْب»:

ـ حَسْـبيَ الله ونـعم الـوكيـل...، وهـو وَحْـده قاضي الحاجات...، ولكن أُريدُ موسى أَحْلق وأَتطهَّر! استعداداً للقاء الله تعالى...

فَأَرسلَتْ له مع غلامٍ لها تلك الموسى...
ثُمّ تَنَبَّهَتْ فقالت في نَفْسها:
ـ مـاذا فَعَلْتُ؟ هل جُـنِنْتُ؟ أَرْسَلْتُ الموسى مـع ولدي...، فقد يَقْتُلُهُ بها «خُبيْب» انتقاماً لنَفْسه!!؟

ثم بادَرَتْ مُسْرعة إلى الغرفـة حيْث «خُبَيْب» فلمّا

هَمَّت بالدُّخول سمعته يقول :

ـ لعمْرك . . ، ما خـافَتْ أُمُّك غَـدْري حين بعثْتك بهـذه الموسى إليَّ !!؟، قُمْ عَنّي ، وآنصـرف من تلْقاء وَجْهي !



الرَّاكِعُ بَيْنَ يدي الله

وجاء «حُجَيْر» في اليوم التالي إلى دار «ماوية»، ومعه نَفَرٍ من أصحابه ومواليه وأعوانه، فَأَخرجُوا «خُبيْباً» وساقُوهُ مُصَفّداً بالحديد إلى «التّنْعيم»،

وهناك كان الحشْد الهائل من الناس، قد أَتَوا ليشاهدوا قتْل «خُبَيْب»، فلما آقتربُوا به من الخشبة التي سوْف يصلب عليْها قال لهم:

- إن رأَيْتُم أن تَدَعُوني حتى أَرْكع ركعتيْن.. فآفعلوا؟!!

فتشاوروا...، ثم تركوهُ يُصَلّي، قائلين:

- دونك فآرْكع.

فركع ركعتْين، اتمّهُما وأَحْسنهما...

وبعـد أنْ سلّم وٱنتهى مـن صـــلاتـــه ٱلْـتَفَتَ إلى القوْم وقال:

ـ أما والله لوْلا أن تظَنّوا أَنِّي إنَّما طوَّلْتُ جَزَعاً من الْقَتْل لاسْتَكْثَرْتُ من الصلاة. . . !!



الدعاء الرهيب.. والسلام على الحبيب!

ثم شَدّوهُ على خشبةٍ على هيئة الصَّليب، وأوْثقُوه رباطاً، ثم رَفَعوه، فلما علاهُم قال:

اللَّهُمَّ إنّا قد بلَّغْنا رسالة رسُولك، فبَلّغْهُ الغداة ما يُصْنَعُ بنا...، ثم دعا:

اللَّهُمَّ أَحْصِهم عَدداً، وٱقْتُلْهم بَدَداً، ولا تُغادِرْ منْهُم أَحَداً...

أما السّلام على الحبيب المصطفى «ﷺ» فقد تلقفتْهُ ملائكة السماء، وحملتْهُ إلى النبيّ في المدينة، وهو جالس في المسجد، مع جماعةٍ من الصّحابة الكرام، فقال «عليه الصلاة والسّلام»:

ـ وعليك السّلام يا «خُبَيْب»...

فٱستفسر الجالسون، منه «ﷺ» عن سَبَب تسليمه على «خُبَيْب»..؟ فحدَّثَهُم بما أَوْحاهُ الله إليه، ماذا

كان من أمر شُهداء بعْث «الرَّجيع».

وأما الدُّعاء على الْجُناة بالهلاك فيحدّثُنا عَنْه «معاوية بن أبي سفيان» - وكان مع أبيه يوم قتْل خُبَيْب - فيقول:

- حَضرْتُهُ يومئذٍ فيمن حَضَرَهُ، مع «أبي سُفْيان»، فلقد رأيْته يُلقيني إلى الأرض فَرَقاً[1] من دعْوة «خُبيْب».

[وكانوا يقولون: إن الرَّجُل إذا دُعيَ عَلْيه..، فاضْطَجَعَ لجَنْبه زلَّتْ عَنْه].

ولقد أَنشد «خُبَيْب» بعد السّلام والدُّعاء، فقال:

لقد جَمَعَ الأحزابُ حوْلي وألّبُوا
قبائلهم وآسْتَجْمَعُوا كُلّ مَجْمع
إلى الله اشْكو غُرْبتي بعد كُرْبتي
وما أرْصدالأحزاب لي عنْدَ مَصْرعي

(١) فَرَقاً: خَوْفاً وَجَزَعاً.

وذلك في ذات الإلٰـه وإن يشـأ

يُبارك على أوْصال شِـلْوٍ مُمَزَّع

وقد خيّروني الكُفر والموْت دونَه

وقد هَمَلتْ عَيْناي من غيْر مَجْـزع

وما بي حـذارَ الموْت، إنّي لمَيتٍ

ولكن حـذاري جَحْم نارٍ مُلفَـع

فلسْتُ أُبَالي حين أُقْتَلُ مُسْـلماً

على أيّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرعي

ولسْتُ بـمُـبْـدٍ للعـدوِّ تَخَشُّعـاً

ولا جَزَعاً، إنّي إلى الله مَرْجعي



الشهادة

ثم دَنَتْ ساعة «خُبَيْب»، وحان حَيْنُه. .

فاقترب منه شَخص يُدْعى: «أبو سَرْوعة»، وبيده حَرْبة، طَعَنَهُ بها. . .، وتلاحقت من ورائها طعناتُ بعْض الحاضرين، كُلٌّ يُريدُ أن ينال شرف قَتْل «خُبَيْب»!!

وصعدت روحُهُ الطاهرةُ البريئة الصادقة إلى بارئها، تَنْعم بجواره.



الإنقــاذ

وكما آخْتَفَتْ من قبل ذلك جُثَّة «عاصم بن أبي الْأَقْلح» أميرُ سريّة «الرَّجيع» كذلك آخْتَفَتْ جُثّةُ «خُبَيْب بن عديّ» أيْضاً.

وإليْك ما جرى:

بعد أن ردَّ رسُول الله «ﷺ» السَّلام على «خُبَيْب» وقال:

ـ وعليْك السلام يا «خُبَيْب»،

ثم حدَّث الحاضرين من أصحابِهِ بما أوْحى الله تعالى له عن وقائع بطولات وآستشْهاد أفراد سرّيّة «الرَّجيع» طَلَبَ «عليه الصلاة والسلام» من «الزُبَيْر بن العوّام» و «المقْداد بن عمرو» أنْ يَخْرُجا إلى «التَّنْعيم» ويأْتيا بجُثَّةِ «خُبَيْب». . .

فآنطلقا من المدينة مُزَوَّدَيْن بدُعاءِ النبي «ﷺ»،

وأغذّا السَّير، يحدُوهُما الأمل بتحقيق الرَّغبة الكريمة.

وكانت «قريش» من جهتها قد تركتْ «خُبَيْباً» بعد قتْله معلَّقاً على الخشبة التي صُلِبَ عليْها، لتأكل الطَّيْر من جُثَّتِهِ، إمعاناً في القسوة والظُّلْم، وفُحْشِ الثَّأْر. . .، وقد تركُوا عند الخشبة فُرْسَاناً منهُم، مُدجَّجين بالسِّلاح، ليس بقصْد الحماية. . .، ولكن بِغَرضٍ بقائها معلقة أطْول مُدَّةٍ ممكنة. . .، حتى لو تهرّأَتْ وتناثَرَ اللحْم عن العظْم.

وكان «خُبَيْب» ـ رضي الله عنه ـ حين طعنَهُ «أبو سَرْوعة»، فقتَله. . .، قد اتَّجَهَ بوجْهِهِ إلى القِبْلة. . .، فكانوا كُلَّما أداروا وَجْهه إلى غيْر القبلة بعد أن لفظَ أنفاسه. . .، عاد الوجْهُ من تلْقائه إلى ناحية البيْت الحرام. . .!! إلى الكعبة. . .

ولقد أنفق الحرسُ وقْتاً طويلاً يَفْعَلُون ذلك. . .، فلما يَئِسوا تركُوا الأمْر على حاله، وأقاموا في أماكنهم يراقُبون.

وصل البطلان: «الزُّبَيْر» و«المقداد» إلى ضاحية

«التّنْعم» من «مكة المكرمة»، وكان وقتُ وصولهما مع الأصيل، وقد رَأيا شِدَّة الحراسة على جُثَّتِهِ «خُبَيْب»، فأويا إلى صَخْرةِ هُناك اسْتخفيا وراءَها، وتَظَلّلا بِظِلّها الذي راح يمتدّ ويتطاول كلما مالت الشمس نحو المغيب.

وكان «الزبَيْر» قد قال لِـ «المقداد»:

- أرى يا أخي أن ننتظر إلى اللّيْل فإنّه ستْر لنا، يُعينُنا على الحركة، وكذلك... إن الْحَرَس لا بُدّ وأنْ تَغْفل أعينُهُم قليلاً بالنُّعاسِ أو النّوم...!!!

فأمّن «المقداد» على قوْله.

ولبثا وراء الصَخْرةِ يتحيَّنانِ الْفُرْصة.

غربَتِ الشمس، وزَحف على الكوْن جيش الليْل، بسوادِهِ وقتامتِهِ، حتى إذا كان الْغَسق تسلل الفارسانِ من مَكمنهما، وتقدَّما واحداً بعد الآخر من المرْتفع الذي عِنْدهُ جُثّة «خُبيْب» فوق الخشبة!!

وآنتظرا قليلاً..

كان الحرسُ يتناوبُون؛ جماعةٌ تحْرس، وأُخْرى

تأْخُذ قِسْطها من الراحة؛ لكنّ النّومَ سلْطانٌ.. خُصُوصاً مع الهدوء والسُّكون...، فما لبثوا جميعاً أنْ أخذتهم سِنَةُ الكرى...

عندئذٍ تَقدَّم «الزُّبَيْـر» وتَبِعَهُ «المقـداد» زحْفاً على بُـطُونِهِما، فلمـا حاذيـا الخشبة وقفـا مُنْتَصِبيْن، وراحا يُعـالجـان.. ـوَبسُرْعَةً ـوِثـاق «خُبَيْب» ثم أنْـزلاهُ عن الخشبة، وآحْتملاهُ...

كانت الجثّةُ نديَّةً طريّة، لم تَيْبَس من الموْت!!!، والدماءُ زكيّة الرائحة؛ لم تُشوّه معالمها الطُّيور الكواسِرُ كما كان يَشْتهي المشركون ويتمنَّون، فَكَأَنّ البهائم التي لا تعقل ولا تُدْرك قـد أَنِفتْ بالغـريزة عن مَسِّ قُـدْسيَّة الْجُثّة..

وَعـالجَ «الـزُّبيْر» و «المقـداد» مسْـأَلـة نقـل جُثـة «خُبَيْب» إلى مَوْقع فرسَيْهما عنـد الصَخْرة، بكثيـرٍ من التأّني والْحَذَر حتى لا يُحدثا صخباً... ولا يُلْفِتا نظراً فَيَذْهَبَ جُهْدهما أَدْراج الرِّياح..

وأخـذا ـ على مَهَل ـ يمضيـانِ بهـا بَيْن الحجـارة

المتناثِرَة والأعشاب الشوكيّة المتكاثرة، وقد دَمِيتْ أعقابُهما . . .

وآستغْرَقَ منهما ذلك العمل المضني وقْتاً ليس بالْقليل؛ حتى أتيا الصَّخْرة. . .، وقد أصْبحا في نَجْوةٍ من خطر يقْظة الحرس.

وتعاونا على رفعها إلى صَهْوة فرس «الزُّبَيْر» . . .، وبخفّةٍ متناهيةٍ إسْتويا على متْن فَرَسَيْهما، وهَمَزَ كُلٌّ مِنْهُما بِطن فرسِهِ بقدمِهِ. . . وأرْخيا الأَعِنَّةَ؛ فآنطلق الفرسانِ يسابقان الريح. . .

ولكن. . . حَدَث ما لم يكُن في الْحُسْبان؛ إذ صَهَلت فرسُ «الزُّبَيْر» صهيلاً عالياً. . . مُتَواصلاً شَقّ سكون اللَّيْل السّاجي. . .، فآستفاق الْحَرَس الذّين غفلت أعْيُنهم عن مُهمَّتهم، ونظر أحدُهم وهو يَفْرك عينْيه إلى الخشبة فلم يَرَها. . .، وظنَّ نَفسه في حُلُمٍ . . . فأعاد فَرْك عينيه، ثم صَرَخ في أصحابه ـ : انْتَبِهوا. . . فقد سُرِقت جثة «خُبَيْب» ! ! !

فقاموا مذْعورين. . .، وبادروا خُيُولهم. . .، ثم

ٱمْتطوا ظهورها. . . ، وتتبَّعُوا صَوْت وقْع حوافِر فـرسَيْ «الزّبَيْر» و «المقداد» ، ولَحِقُوا بهما. . .

ولقد كان الثِّقل على ظهر فـرس «الزُّبَيْـر» مدعـاة تباطؤٍ وتمهُّل. . . ، فأدْركتْهما خَيْل الحرسِ بَعْد مسافةٍ ليستَ بعيدَةً عن المكان. . .

وفكَّر «الزُّبَيْر» : ماذا يَفْعل . ؟

هل يَظَلّ في جَرْيه وهَرَبه فَيُعِّـرض نفسه وصـاحِبَهُ للخـطر الأكيد؟ أم يُلْقي بـالجثّة فيتخفّف في الْحَمـل المعوّق؟؟

ولـم يجد بُدًّا من تنفيذ الفكرة الثانية. . . ، فـألقى بالْجُثَّة من فوق ظهر الْفَرس. . . فانطلقت تَعْدوا عَدْواً سريعاً. . .



الْعَــوْدة

قـطع «الزُّبَيْـر» و «المقداد» شـوْطـاً حتى أصبْحـا بمأمن، ثُمّ قال «المقـداد» لصاحِبِه:

ـ كفى... لَقد بعدْنا ما فيـه الكفايـة عن القوْم، وقد كفُّوا عن مطاردتنا...، فهياًّ نَعُدْ إلى حَيْث آسقطْنا جُثّة «خُبَيْب»...!!

فشَـدّا لجام فـرسَيهما، وثَنَيـا الْعِنان...، وعـادا متَمهِّلين إلى الوراء.. وحين آقتربا ترجَّلا من على ظهْر الْخَيْل، ومضيا على أَقْدامهما...

فَـرَبطا الفـرسْين إلى جِذْع شَجَـرَةَ ثم زحَفـا على بَـطْنَيْهما حتى بلغـا قِمَّة الكثيب الـرَّمليّ الذي يَحْجـز بينهما وبَيْن الحرس، ولبثا ينظران إلى ما يَفْعل القوم، وماذا يقولون...

بليع الأرْض

قال أحَدُ الحرس لأصحابِهِ مُنادياً:

- إليَّ.. إليّ..!!

فجاءوهُ حَيث يقف، ثم قال لهُ أحَدُهم:

- ماذا بك؟ هل أصابك مكروه؟

فقال:

- كلاّ..، إني بخيْر... ولكن آنظروا إلى الأرض حيث أقِف... فآنحني بَعْضُهم مُتَفَحّصاً، ثم قالوا:

- إنّها آثارُ دِماء... وما تزال الأرض رطْبةً بها...، لا بُدَّ وأَنَّ الجثَّة بإزائها...، هيّا ابْحثُوا ولا تُقَصِّروا...

فآنتشروا ثانيةً يَبْحَثُون...

ما تركُوا مُنْحنىً.. ولا كثيباً... ولا صَخْرةً...

ولا مجرى سَيْل. . . إلاّ عايَنُوه. . .، ولم يعثروا على الْجُثّة. . .

أَمْضوا في ذلك وقْتاً طويلًا، حتى قارَبَ الفجْرُ على الْبُزُوغ. . . فقال قائِلُهم:

ـ كفانا ما أَنْفَقْناهُ غن جهْد ووقْت. . .، ولعلَّ المحظور قد وقعَ. . .، وإنّي لأرى بأَنّ أَعْيننا قد خَدعَتْنا حين رَأَيْنا في عَتْمَةِ الظلام سقوط الجثّة أرْضاً. . .!! فَلْنعُد الآن من حَيْثُ أَتَيْنا وليكُن ما يكُون من شَأْن وأَمْر!!!

فقال آخر:

ـ واللاَّتَ والعُزى ما خَدَعتْنا أَبَداً. . .، وإنّ الدِّماء الّتي فَوْق الرِّمال خَيْر شاهِدٍ ودليل، ولكن يَبْدو أنّ في الأمْر سِرّاً. . . كبيراً. . . لا نُدْركُهُ ولا نَفْهَمُه!!!

ثُمّ. . ركبُوا خُيُولهم، وَلَوَوْا أَعِنّتَها وعادُوا. . .

أمّا «الزُّبَيْر» و «المقداد» فقد بقيا في مكمنهما حتى آنصرف الحرس، ثم خَرَجا يُفتشانِ عن جُثّة «خُبَيْب». .

ثم أَسْفَـرَ الصُّبْـح عن وجهـه الْمُشْـرق، وٱنْتشـر الضَّوْء. . . ، فقال «المقداد» لِصاحِبِه:

ـ أرى ـ يـا «أبـا عَبْـد الله» أنْ نكُفّ عن السَّعْي، ونعـود إلى «المـدينـة»، فنُخبَـر رسُـول الله «ﷺ» بمـا حدث. . . وجرى. . . ، وليس من شَكّ في أَنّ الأرض التي ٱبْتَلَعتْ جُثّـة «خُبَيْب» وجُثَّـة «عـاصِـمٍ» من قبْـل سوْف تَحْتفظ بالسِّرِّ الكبير إلى أَنْ يشاء الله. . .

فقال «الزبير»:

ـ صَـدَقْت يـا أَخي. . . فـالله وحـده يَعْلم السِّـرَّ وأَخْفى!!





سلسلة الأسرار الإسلامية

- سر الحجر
- سر الكنز المرصود
- سر السيف المخطوف
- سر بيت الأشباح
- سر الرمح الملتهب
- سر السرداب
- سر التفاحة
- سر الأقدام والأغنام
- سر الشيل والليل
- السر تحت الشعر